الطفولة هاجس المستقبل

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ١١/٥/٢٠٠٧م

ما نفتأ نُكرّر الحديث مرّاتٍ ومرّات عن موضوع الطفولة، وإن كنا نتناول هذا البحث من وجوهه المتعددة، لكنني أشعر أن الحاجة إلى طرح هذا الموضوع يبعثها هاجس المستقبل.

فطفل اليوم هو رجل المستقبل، والذي تنظر إليه اليوم على أنه من رعيَّتِك، سيكون يومًا من الأيام راعيًا.

وبمقدار ما يكونُ الإعداد صحيحًا والتكوين سليمًا، ندفعُ عجلة النهضة والرقيّ والصلاح والتقدُّم... في مستقبلنا إلى الأمام.

وبعد كلِّ شتاءٍ صيفٌ، وبعد كلِّ صيفٍ شتاء، وها نحن مع أطفالنا تارةً نودِّع عطلتهم الصيفية لنستقبل معهم عامًا مدرسيًّا، وتارةً يكون العكس، وتضييعُ الفرص يعني حذفَ جُزء من أعمارنا.

الطفلُ نعمةٌ من نِعَمِ الله التي يُحمَد عليها، فقد قال خليل الرحمن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وهو مصدر سرور: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولَكْ﴾ [القصص: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ٧٤].

وهو صفحة نقيَّةٌ لم تُكدَّر بسواد: (**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**).

ولئن فات في الماضي زمنٌ مُضيَّع، فإن الفرص على الإطلاق لا تفوت، والتقصير يُتدارك.

لا تقل: فات المركب، ولم أعتنِ بولدي في الأمس، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] فوسّع لنا سبحانه وتعالى أُفُقَ التفكير، فما فات بالأمس يعوَّض اليوم.

وقد روى الإمام أحمد والحاكم والطبراني أنَّ أمَّ هانئ رضي الله تعالى عنها - وهي أُختُ سيدنا عليٍّ رضوان الله تعالى عليه - قالت: (**قلت: يا رسول الله! كبُر سنِّي، ورقَّ عظمي، فدُلّني على عمل يدخلني الجنة**)، فهي مع كِبر سنِّها ودخولها مرحلة الشيخوخة، تطلبُ العلم، وتسأل الدليل صلوات الله وسلاماته عليه.

وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: (**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**).

ولا إثمَ أكبر من تضييع مَنْ ترعاهم، فهي مسؤولية كبيرة، وعلى الإنسان أن لا يضيِّعها سُدى، منشغلاً بما يسمى (البحث عن لقمة العيش)، فليس الإنسان كالبهائم، همُّه لقمةُ عيشه وحسب، بل هو عقلٌ وسلوكٌ وقلبٌ وروحٌ، وحينما تنحصر القضية كلُّها في لقمة العيش، عندها يُختَزل الإنسان، ويُختَصر بما لا يقبل الاختصار لمعناه.

وسأتحدث في مفرداتٍ ثلاثة:

١- العنوان.

٢- في الاستعدادات.

٣- في المسؤولية.

١- العنوان: فالعنوان الذي ينبغي أن نضعه ونحن نسعى إلى رعاية الطفولة يُستمدُّ من كتاب الله تبارك وتعالى، حين أورد قصة ولادة مريم عليها السلام، وحكى على لسان أمها: ﴿وإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

والاسم عُنوانٌ يختصر فيه الموضوع، فمريم معناها خادمة الربّ، فهي هنا وضعت عنوانًا لرعايتها.

وخدمة الربِّ تعني باختصار حمل الأمانة، ليكون الإنسان في هذه الخدمة عابدًا لربِّه، متعاملاً مع الكون وفق هديْه، متحرِّكًا في السلوك الإنسانيِّ بما يحبُّه مولاه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فحينما وجدت نفسها فجأةً مسؤولةً عنها أحسنت وضع العنوان على رعايتها للطفولة، وأدركت ما ينبغي أن يقوم الإنسان به من خلال دلالات ذلك العنوان.

ثم قالت: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فهي لا تتحدَّثُ عن الطفل في ماهيته المنظورة، لكنها تنظر إلى مستقبل.

وهكذا امتدَّ المستقبل أمامها، فأرادت أن تُوجد مشروعًا مستقبليًّا ترعاه، يكون هذا المشروع حملاً للأمانة، فهي تدرِّب هذا المخلوقَ الذي يحمل المستقبل في طيّاته على حمل الأمانة، مع مفاصلةٍ واضحةٍ تبتعد فيها عن تشويش الشيطان.

وهكذا يتَّضح العنوان.

لماذا تعتني بطفلك؟ هل ليكون في المستقبل مهندسًا أو طبيبًا؟ أهذا هو مشروعُك؟

أم أنَّ كونَه مهندسًا أو طبيبًا يندرج في مشروع كبير، وفي مستقبل، أي هو حاضرٌ ينتج مستقبلاً، وفي هذا المستقبل إنسانٌ مقرَّبٌ، وناجحٌ، ومعطاءٌ، ومتعلِّمٌ، وجادٌّ، ومستقيم...؟

إذًا: على الإنسان أن يضعَ - وهو ينظر إلى طفله - مشروعَ المستقبل، وأن يكونَ هذا الطفل هاجس مستقبل.

فهي بقولها: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ تخطط للأجيال، لا من أجل أن يكون هذا الطفل الصغير شابًّا مفتولَ العضلات في المستقبل القريب وحسب، لكنها تنظر إلى المستقبل.

فهل ننظر إلى أطفالنا على أنهم مستقبلُنا؟ وهل تعي حين يكون لديك طفلان أو ثلاثة أو أربعة أنك تملك مضمونًا كبيرًا يمكن أن يقدِّم تغييرًا، ويمكن أن يقدِّم ما لم تستطع تقديمه؟

٢- الاستعدادات: وأحببت من خلالها أن ألفت النظر إلى بعض الاستعدادات الموجودة في الطفلِ، مشروعِ المستقبل، وكيف نبَّهَنا القرآنُ العظيم إليها، حتى لا ننظر إلى الطفل على أنه مجرَّدُ دمية تتحرك لتُدخل على قلبنا السرور، فالقرآن الكريم يتحدث عن عالم الطفل الباطن، وعن مشاعره وعواطفه، وعن سلوكه...

إنه يُخرج لنا نماذجَ من استعدادات هذا الطفل، حتى ننظر إليه على أنه عالَمٌ فيه الأبعاد العميقة، وفيه السلوك المنظور، وفيه العواطف المتحركة...

فالقرآن يبرز لنا في قصة الطفل يوسف عليه الصلاة والسلام عنصرَ إلهام الله له وهو ما يزال طفلاً، فالقلب الذي يحمله هذا الطفل مستعدٌّ للإلهام.

وهكذا نقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾، فكما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وكان وحيَ إلهام، قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ فوقع الإلهام في قلب هذا الطفل وهو في غيابة الجبِّ أنِ اصبر فإنه سيأتي يومٌ تكبر فيه، وستجد الفرج بعد هذا الحبس، وستجد نفسك يومًا من الأيام واقفًا بينهم تخبرهم عما صنعوه بك.

﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] فستكون الأعلمَ والأفقهَ والأحكمَ منهم...

وقع كلُّ هذا في عالم الطفل الباطن وهو في غَيابة الجبّ.

ليست مجرَّد صورة، لكنها تثير فينا عنصرًا مهمًّا، وهو أن قلب الطفل مستعدٌّ للإلهام، فافهم أنك أمام عالم كبير.

وبعد هذا نجد أن القرآن يعتبر الرؤيا المنامية لهذا الطفل، فقد رأى رؤيا في المنام، والقرآن يسلط الضوء عليها.

إنها ليست مجرَّد قصة، فهو يسلط الضوء على البعد الباطن، ويعتبره، ويشخِّصه، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] أي رأيتُ في المنام رؤيا، فاعتبَرَها القرآن ونقلها وبيَّن صدقها وشخصها.

وبعد هذا نقرأ النص الذي يتحدَّث عن الطفل يحيى عليه الصلاة والسلام وهو في طفولته، لنجد صورةً فيها العالمُ الخارجيّ، وفيها العواطف والمشاعر، إنها لوحةٌ متكاملةٌ نستطيع أن نقف فيها أمام الطفل لنقرأ أبعادًا متعددة، يقول تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٤].

- ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي بجدٍّ واجتهاد، إنه خطابٌ يتحدَّث عن اجتهاد الطفل وجديّته، إذًا: يمكن للطفل أن يكون هازلاً، ويمكن أن يكون مجتهدًا وجادًّا...

إذًا: فأنت في مشروعك هذا أمام احتمالين: إما أن تكون أمام طفلٍ كسولٍ خاملٍ، أو أن يُنتج مشروعُك طفلاً جادًّا مجتهدًا، فاختر أيَّ الاحتمالين تريد.

هل تضع في حُسبانك وفي مشروع تربيتك ورعايتك أن يكون هذا الطفلُ الطفلَ الجادَّ المجتهد، أم أنّك بإهمالك ستجد نفسك مفوِّتًا لفرصة الرعاية لتنتج طفلاً ساخرًا أو خاملاً أو كسولاً؟

إن اليتيم المعنويَّ الحقيقيَّ هو الذي تلقى له أمًّا تخلّت أو أبًا مشغولاً، حينما تُهمِل رعاية هذا الطفل وأنت المسؤول الأكبر والأوحد عنه.

- ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ يقول المفسرون في تفسيرها: قال الصبيان ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال لهم الطفل يحيى: ما لِلَّعِبِ خُلِقْتُ، فأنزل الله تعالى يصف هذا: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فكان كأنه الحاكم والحكيم والقيادي والريادي بين الأطفال، وكان يدرك ما يدركه الكبار، ولذلك استحقَّ أن يوصف بهذا الوصف: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، وهذا وجهٌ من وجوه التفسير.

- وبعد هذا يقول: ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: وآتيناه حنانًا من لدنَّا، أي الرحمة لأبويه، والرحمة والتعطف والشفقة... للناس.

يا سبحان الله! نحن نتحدَّث عن الشفقة على الطفولة، وها هو القرآن يبرز لنا تعطُّف الطفولة على غيرها، ويَدخُل إلى استعدادات الطفل ليكشف لنا عن جانب، وهو أن الطفل يرحم، ويتعطف، ويشفق...

إنه جانبٌ تُفاجأ وأنت تقرؤه في كتاب الله تبارك وتعالى، فهذا الطفل الذي ترحمُه وتظنُّ نفسك وحدَك صاحبَ المشاعر تجاهه، ها هو صاحب الحنان، وصاحب الرحمة، وصاحب الشفقة، وصاحب التعطف والعطف.

إنه جانبٌ حينما لا نتصوره قبل أن ننفذ إلى رعاية الطفولة نُفاجَأ أننا نرسم في الهواء.

الطفل عالَمٌ كبير، وعندما لا نفهم ذلك العالم نتعامل معه بغباء، ونتعامل معه على أنه جماد، وعلى أنه بهيمة من البهائم التي تُضرب.

نعم، إن التربية في بلادنا وفي بلادٍ كثيرةٍ متخلفةٌ... إنها لا تتصوَّر الطفل، ولا تفهمه، ولا تدرك من هو هذا الطفل، بل تتعامل معه بمجرَّد أنها تنظر إلى ضعف بنيته وصغر قامته، ولا تنفذ إلى عالمه الباطن الذي يعيش فيه استعدادًا كبيرًا.

حين تورِّث الحقدَ في الطفل بضربه وإهانته، فأنت تبني قنبلةً موقوتة، وسوف يكون في المستقبل حاقدًا، وأنت الذي أنتجْتَ هذا الحقد، وأنت تتوهَّم أنك تربِّيه.

وأتحدَّى أن تأتوا من حياة النبي صلى الله عليه وسلم بحادثةٍ واحدةٍ ضرب فيها طفلاً.

وإنَّ حديث: (مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ) لا يُقصد منه الضربُ المبرِّح أبدًا، إنما يقصد منه التنبيه.

والضربُ الذي ورد في القرآن، حينما تحدَّث عن ضرب الرجل لزوجته في بعض الأوقات، أو ضرب المربي لولده، إنما هو نوعٌ من أنواع التذكير لا الإيلام، لذلك كان سيدنا عبد الله بن عباس يتحدَّث عن معنى الضرب في القرآن ويقول: كالضرب بالسواك.

إنها حالة تذكير وتنبُّه، لا يُقصد منها الإيلام، إنما يقصد منها التذكير.

لكن ما نشاهده في مدارسنا وفي مساجدنا فيما يسمى بمعاهد القرآن، لا يمثل حالة تربية أبدًا، إنما يمثل حالة حقدٍ وانتقامٍ شخصيٍّ عند الأستاذ.

نعم، إن الأستاذَ بحاجةٍ إلى تربية، لأنه لم يعانِ التربية أبدًا.

إنه يفرِّغ ما فيه من البغضاء والشحناء والكراهية... وينتقم من مجتمعه من خلال ذلك الطفل.

وهكذا ينتقل هذا الانفجار في الأستاذ إلى حالة انفجارٍ موقوتةٍ في الطفل، وينفجر في مستقبله، وتتوالى تلك السلسلة البشعة، سلسلةُ الحقد والانتقام...

وكلُّ هذا لأننا لا نفهم عالم الطفولة، ولا ندرك أن كلَّ سلوكٍ يفعله الإنسان ينتج عند الطفل غرسًا، وهذا الغرس سوف يتحول إلى شجرة، وهذه الشجرة إما أن تعطيك الزقوم، أو أن تعطيك أحسن الفواكه.

– ثم قال: ﴿وَزَكَاةً﴾ أي طهارة، فأنت أمام عالمٍ طاهرٍ، وأمام باطنٍ لا يميل إلى الخبائث كما تميل أنت.

أنت عالمٌ استعداداتُه الباطنة فيها من الغرائز والأحقاد والميل إلى الشرور... ما فيها، أما هذا الطفل فإنه عالم زكاة، وعالم طهارة، فأنت تملك استعدادًا للميل إلى الخبائث لا يوجد في هذا الطفل، فهو خيرٌ منك وأفضل منك، وعليك أن تقدِّره وتحترمه، فلا ينبغي على المفضول أن يقهر الفاضل، ولا ينبغي أن نعيش في القهر، وأن نُشعر أطفالَنا القهر، وأن نربِّيهم على القهر، فإذا كبروا أمسكوا بالقهر دَيْدنًا لهم وحالة، وصدَّروه إلى الآخرين.

– ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فالطفل يوصف بالتقوى، لأن شروده السلوكيَّ يكون في الغالب من قبيل طلب المعرفة والرغبة في التجربة، وربما تفسِّره أنت تفسيرًا يتماشى مع غرائزك، ومع ميلك الخبيث، لكنه عندما انحرف سلوكيًّا لم يكن منبعثًا من ذلك البعد الشاذِّ أو الانحراف، إنما كان مدفوعًا بالرغبة في التعرف إلى الأشياء وتجريب كل شيء.

هكذا أوجد الله تعالى في باطن الطفل الرغبة في التعرُّف، حتى يكون مستعدًّا للتعلُّم بسرعة أكبر، فلا نفهم ذلك الانحراف السلوكيَّ فهمًا خاطئًا، فهو يُجرِّب.

لكن حين توجّهُه وتُحسن توجيهه، تستطيع انتشاله من ذلك الانحراف السلوكيِّ، الذي انطلق من الرغبة في التجربة والتعرُّف.

إذًا: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي وقف في سلوكه على صراط الاستقامة.

– ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وهذا استعدادٌ يمكن لنا أن نعمِّقه ونرعاه، حينما نُحسن تحبيب الوالدين إليه، وحينما نُقرِّب إلى قلبه معاني البِرّ، ونُتقِن لغة الترغيب.

– ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي **لم يكن جبَّارًا** فلا يَبَرُّ والديه ولا يرحم غيره، **ولا عصيًّا** ليكون بعيدًا عن صراط الاستقامة.

إنها لوحةٌ تضعنا أمام نماذج في الطفولة.

٣– المسؤولية: وينبغي أن نقف مع هذه المفردة لنقدّم بعض إضاءات في ساحتها.

فالتعامل مع الطفل مسؤولية، ولا ينبغي أن تُوكَل هذه المسؤولية إلى جاهل.

يا من يرعون معاهد القرآن، ليس المقصود أن تعلّموا أطفالنا القرآن فقط.

لا تبحثوا في استعداد المعلّم عن قدرته على تعليم القرآن فقط، بل ابحثوا عن استعداداته التربوية أيضًا، وإلا فاجتنبوا هذه المسؤولية إذا كنتم لا تقدرون عليها، ولا تشوّهوا تلك اللوحة النقيّة.

إذا لم تكونوا قادرين على التعامل مع الأطفال فاجتنبوا هذه المسؤولية، وخاصة أنكم تتعاملون معه في المسجد، وحينما تشوّهون ذلك التعامل، ولا تتقنون القيام بمسؤولية الرعاية، فإنكم سوف تضعون في قلوب الطفل تصورًا بشعًا عن المسجد، لأنه تعرّف إليكم في المسجد، فربط في ذاكرته بينكم – وأنتم تسيئون إليه وإلى مشاعره – وبين المسجد، فتوهَّم أنكم تمثلون المسجد، وها هو يدخل المسجد أول مرة، لكنه يُصْدَم بكم.

ابتعدوا عن هذا..

إيَّاكم أن تجعلوه حِرفةً أو تجارة..

إياكم أن تنظروا إلى القضية على أنها قضية يستطيع أن يتطاول إليها كلٌّ من يريد.

إنني أتمنى أن تُشكَّلَ لجانٌ حقيقيةٌ قادرةٌ على فحص من يريد تربية الأطفال، وألا يكون هذا الأمر عبثيًّا، وألا يكون سبب تشويه، وأن يكون الباحثون من المتخصِّصين.

لا نريد مائة ألف طفل يتعلّم، ويُخرّج منهم تسعون ألف حاقد، بل نريد عشرة آلاف طفل في لجان مدروسة عند مؤهَّلين للتربية.

لا نريد كمًّا يُنتج في النتيجة حقدًا وبغضًا وانحرافًا سلوكيًّا، لكننا نريد صفاءً ونقاءً، ونريد من الذي يُعلّم الطفل ويُوجّهه في المسجد أن يزداد فوق مقوّمات المعلم التربويّ في المدرسة بمقومات إسلامية تربوية نقيّة، فإذا لم يمتلك ذلك، سيكون مُنفِّرًا ومُخرِّبًا لأطفالنا.

نعم، إنني أوجّه خطابًا إلى من هم في ساحة المسؤولية الرسمية وأقول لهم: إن ما يُدعى بمعاهد القرآن ينبغي أن ينال الاهتمام الكبير، وألا يكون المسجد دُكّانًا وسببَ تنفير للأطفال، وإذا أردتم نجاح الأمر فاستعينوا بالمتخصصين، وانتدبوا تطوُّعًا التربويين في بلادنا، ليُشكِّلوا لجانًا متخصصة لفحص من يريد التعليم والتربية داخل مساجدنا.

وينبغي أن يُنظر ونحن نتحدّث عن المسؤولية إلى:

١–كفاية المُربّي وأهليته: ونستمد هذا من قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] إنه رسول من رسل الله لكفالة طفل.

فهل فهمنا ما معنى الكفاية؟ وهل فهمنا الأهلية؟

فلم يُكفِّلها جاهلاً، ولا حاقدًا، ولا مُبغضًا، ولا أرعنًا... إنما ﴿كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

فلا بد حتى نقوم بالمسؤولية من التحقق من كفاية المُربِّي أو المُعلِّم وأهليته.

٢- المعاملة بالرفق: وأؤكد على هذا مرارًا ومرارًا، فالطفولة عالَم ضعف، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤] فوصف الطفولة بالضعف، فلا تتعاملوا مع الضعف بفظاظة.

وهل من العدل أن تتعامل مع الضعف بفظاظة وقسوة؟

روى الحاكم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم **أتاه جبريل وهو يلعب مع الصبيان**.

صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، ها أنت تداعب الصبيان، وتُؤانسهم، وتُلاعبهم...

إن هذا لا يتناقض أبدًا مع رفض يحيى اللعب في حالةٍ من حالاته، ولا يعني أن يحيى لا يلعب، لكنه يُداعب ويُمازح ويُؤانس ويُمارس طفولته في وقت مؤانسته، لا في وقت جِدِّه.

فعلينا أن نعلّم الطفل أن وقتَ مُزاحه ومؤانسته غيرُ وقت جِدِّه.

وفي مسند أحمد كان صلى الله عليه وسلم يَصُفُّ عبدَ الله وعبيدَ الله وكُثَيْرًا، أولادَ العباس رضي الله عنهم، ثم يقول: (**مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا**)، فهو صلى الله عليه وسلم يُشرف على التنافس في السباق بين الأطفال، وانظر كيف يمزج التوجيه في اللعب فيقول: (**مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ**) فأنا مُنتهى طريقكم، ثم يضعهم بعيدًا، (**فَيَسْتَبِقُونَ إِلَيْهِ، فَيَقَعُونَ عَلَى ظَهْرِهِ وَصَدْرِهِ فَيُقَبِّلُهُمْ وَيَلْتَزِمُهُمْ**).

وكنت مرَّةً أتحدّث في ندوة - بتكليفٍ من وزارة الأوقاف - عن التدريب القياديِّ للطفل، وأوردت بعض الصور في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف كان يتعامل مع الأطفال، فوقف أستاذٌ مديرٌ في إحدى المدارس الثانوية وقال: هل تريد مِنّا يا أستاذ أن نضع الأطفال على أكتافنا وأن نحمِلهم فوق ظهورنا؟!

هكذا تعامَلَ المديرُ مع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه رآها غريبة.

إنها غريبة عن شخصيته.. إنه سفّاح، سفّاك، في صورة الحَجّاج الثقفيّ.. هكذا يريد لنفسه، فهو لا يفهم التربية إلا في صورة من يقف ليقول: "متى أضعِ العمامةَ تعرفوني".

إذًا نحن نعاني من أزمةٍ في شخصياتنا، فإذا كنا لا نستطيع أن نفهم سلوكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يمكن لنا أن نُطبِّقه؟

إذا كان المُربِّي سفّاكًا وسفّاحًا وجبّارًا... أيُنتِجُ هذا خيرًا؟

لا.. بل سيُنتج شخصياتٍ ممسوخة.

وروى الضياء بسند صحيح، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُلاعب زينبَ بنتَ أمِّ سلمة، ويقول: (**يا زوينب، يا زوينب**)، فيجعلها أغنيةً ويُكرِّرها، فهو يُرقِّصها ويُداعبها...

وهو صلى الله عليه وسلم الذي كان يُداعب الأطفال، ويُرقِّيهم على يده، ويقول لهم: **(حُزُقَّةٌ حُزُقَّةٌ، تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّة)**.

هكذا خاطب صلى الله عليه وسلم الطفولة.

وفي مسند أحمد قال صلى الله عليه وسلم: **(خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ، أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ)**، فيُفسِّر صلى الله عليه وسلم سبب صلاحِهنَّ فيقول: **(أحناه على ولد)** أي كانت صاحبةَ حنان على الطفل، **(وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ)** أي لا تُشكِّل على الزوج عبئًا ماليًّا، ولا تُظهر على ولدها قسوة أو شدّة.

وفي صحيح البخاري، يقول أسامةُ بن زيد رضي الله تعالى عنه: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي** عَلَى فَخِذِهِ، وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا، ثُمَّ يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا)**.

وأخرج بن عساكر: **(أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى عثمانَ بنِ مظعون، ومع عثمان صبيٌّ صغيرٌ له يلثمه** (أي يُقبِّله) **فقال له: ابنك هذا؟ قال: نعم، قال: تحبُّه يا عثمان؟ قال: إي والله يا رسول الله، إني أحبّه، قال: أفلا أزيدك حبًّا له؟ قال: بلى، فداك أبي وأمي، قال: إنه من ترضّى صبيًّا صغيرًا من نسله حتى يرضى، ترضّاه الله يوم القيامة حتى يرضى)** أي طلب رضاه يوم القيامة.

فهل فهمنا ما تعنيه كلمة الطفولة والمسؤولية عن رعاية الطفولة؟

وكان صلى الله عليه وسلم إذا زار الأنصار سلّم على صبيانهم واحدًا واحدًا، ومسح رؤوسهم، وخصّهم بالحديث، أي يُحدّث الطفل الذي يُسلِّم عليه حديثًا يخصُّه.

٣- ضرورة تشجيع المبادرة وعدم الاكتفاء بالتلقين: فلا ينبغي أن نُدرِّب الطفل فقط على أن يكون مُتلقيًّا عنّا.

وكان سيدنا عمر يقول لابن عباس رضي الله عنهم: **"قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك"** ولو كان معك الأشياخ والكبار.

٤- وهذا لا يمنع أن **يُلقَّن الطفل، لكن في الظرف المناسب**، حين يكون مُستعدًّا، فالنبي صلى الله عليه وسلم لقَّن ابن عباس كما في الحديث المشهور فقال له: **(احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ...)** لكن في ظرفٍ كان فيه عبدُ الله بن عباس مستعدًّا، حيث أردفه خلفه على مركوبه، فحظي بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصار صاحبَه على المركوب نفسه، وما أدناها وأحلاها من حالة، ثم قال له: **(احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ...)**.

٥- الاهتمام بالاستعدادات المتميِّزة: ونضرب مثالاً في مسند أحمد، حيث يقول زيد بن ثابت وهو غلامٌ شابٌّ صغير: (**ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُعْجِبَ بِي**، وهنا يلاحظ النبي صلى الله عليه وسلم استعداده الخاص، **فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا غُلامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً**، وذلك في وقتٍ كان حُفّاظُ القرآن فيه قلائل، وكان هذا الغلام الصغير يحفظ بضعة عشرة سورة، فأُعجب به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، لكن هل ترك ذلك وقال له: بُورك فيك، أم أنه تابع ذلك الاستعداد؟

فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: يَا زَيْدُ! تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فوجّهَه إلى تعلّم اللغة العبرية، وفي رواية: السريانية أيضًا، **فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ**.

٦- وجوب اعتبار وجود الطفل واحترام حقه: بمعنى أنه في حقِّه يساويك، فما الذي تملكه من صلاحيةٍ وحقوق يملكُه.

لا أوافق على أن يُدرَّس في المساجد خمسون طفل في حلقةٍ يجلس بينهم الأستاذ، ويبتغي هذا الأستاذ الربح من خلال تكثير العدد.

لا تنظروا إلى مدارسنا، بل انظروا إلى مدارس الدول المتطورة المتقدمة، فكم يُسمَحُ فيها في الصف، مع وجود وسائل الإيضاح؟

إذًا: ينبغي أن يكون المسجدُ الجامعةَ أو المدرسةَ الكبرى، فلا ينبغي أن نشوّه المساجد.

ينبغي أن يكون هذا الأمرُ مُعتبرًا.

وفي البخاري ومسلم، **أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرَابٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلامٌ** (هو الفضل بن العباس)، **وَعَنْ يَسَارِهِ الأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلامِ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاءِ؟**

إنها صورٌ ينبغي أن نفهمها.

مَنِ المستأذِن؟

إنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، يستأذن طفلاً، ويقول: (**أَتَأْذَنُ لِي..؟**)، فالحقُّ لك في الشراب لأنك على يميني، والأفضلية لمن كان على يمين الشارب.

(**أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلاءِ؟**) أي الذين عن يساره، وهم: أبو بكر وعمر وأشياخ الأصحاب...

فَقَالَ الْغُلامُ: لا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! لا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا، أي أنا محتفظٌ بحقِّي، فأنت شربت وسؤرك ما يزال في الكأس، وأنا صاحب الحق في الشراب.

فلا يأذنُ الطفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز حقّه.

فَتَلَّهُ (أي وضعه) **رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِهِ.**

ألا نفهم أبعادَ مثلِ هذه الصور التي ينبغي أن نوجّه بها من يُمارس رعاية الأطفال، فيستفيد منها الآباء، والمعلمون في المدارس، والمعلمون في المساجد...؟

٧- ترغيبه بالقصص: وأن نستعمل عنصر النشيد في التوجيه.

فالقَصص مصنعٌ نستطيع من خلاله تكوينَ صورة الطفل وهو ليِّن العريكة، وحينما لا نعتني بالقَصص في توجيه أطفالنا، لا نصل إلى قلوبهم.

وما يُصنع الآن في مصانع العَولمة لتغيير شخصيات الطفل، هو من خلال القصة والفيلم... فلا ينبغي أن ننسى أهمية القصة.

وكذلك النشيد، لأنه يُنتج شخصية، ويُلقِّن الطفل، وهو يغني ويرقص، ما لا يحصى من المعاني الفاضلة.

اللهم إنا نسألك أن ترزقنا رعايةً لأطفالنا، لنقوم بهذه المسؤولية الكبيرة التي أَنطْتَنَا بها، وأمرتنا أن نقوم بها، بمنِّك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.